ماذا بعد هذه الحرب المُعلَنة على التاريخ والعقيدة، ولمصلحة من تدور رحى هذه الحرب؟

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

يعرف كل الذين تمكنوا من دراسة التاريخ المسيحي واللاهـــوت المســـيحي، المكانة العالمية لعدد من المؤلفين والباحثين من الأرثوذكس في كنائس اليونان وفرنســـا وانجلترا وأمريكا وألمانيا، وأخيراً روسيا. فقد حظى بعضٌ منهم بوظـــائف في أعـــرق الجامعات مثل كالستوس وير أستاذ اللاهـــوت الشـــرقي الأرثوذكســـي في جامعـــة أوكسفورد، والدكتور القس الأرثوذكسي ياروسلاف بليكان Pelikan أستاذ تـــاريخ العقيدة المسيحية في جامعة هارفارد. والأسماء كثيرة لمن أراد أن يتعرف علـــى تـــراث الأرثوذكسية الممتد إلى ما يقرب من ألفي عام.

وقد شَغل هؤلاء هذه المكانة بفضل الأمانة والدقة في عرض قضايا الإيمـــان، وهي أمانة ودقة تصبُّ في خدمة أصالة الأرثوذكسية، لا سيما وأن ملفـــات التـــاريخ القديمة كلها منذ القرن العشرين، أصبحت في متناول الباحثين، و لم يعد لأحد قـــدرة على التستر أو الغش أو إخفاء معلومات دُوِّنت ونُشرت، وحقق أساتذة اللغات القديمة صحتها ونشروا الطبعات العالمية في أوكسفورد وبرلين وباريس، وأخيراً بعد أن نالت اليونان حريتها من الحكم العثماني، بدأت مطابع جامعات اليونان في نشر كتب الآباء والمؤلفات اللاهوتية التي لم تكن قد نُشرت في فترة الحكم العثماني.

فمن يحاول الغش أو يخطئ، لا ترحمه بالمرة أقلام الباحثين. فقـــد حـــدث أن أخطأ محاضرٌ في تاريخ الكنيسة، كان يُدرِّس في جامعة كامبريدج، ونشر مجموعة مـــن الدراسات تحت عنوان قيام إمبراطورية أصحاب الطبيعة الواحـــدة، وكانـــت هـــذه الدراسات محشوة بأخطاء تاريخية، وكان مصير د. W. Frend أن مُنع من التـــدريس،

وأعاد نشر الكتاب باسم The Rise of the Monophysite Movement لأنه لم يقرأ الحفريات الخاصة بمملكة النوبة التي لم تكن إمبراطورية، و لم تكن قد قامت إلا على النوبة وجزء من صعيد مصر، و لم تدخل في صراع مع الإمبراطورية الرومانية، كما حفل الكتاب الأول قبل التصحيح بأخطاء تاريخية فادحة، لا سيما وأن الإمبراطورية التي ادَّعى هذا المدرس وجودها، لم تمتد شمالاً إلا في جزء محدود من صعيد مصر، و لم تمتد جنوباً نحو القارة حيث الحبشة أو إلى شمال إفريقيا.

وعلى هذا، فأخطاء المدرسين في الجامعات مرصودة، وتواجَّه بنقدٍ لا يرحم في الدوريات والمجلات التي تخصصت في نشر الأبحاث مثل Journal of Theological Studies الذي تصدره دار نشر جامعة أوكسفورد، وصدر ابتداء من عام ١٨٩٩. طبعاً، لا مجال لعرض الدوريات التي تصدر في فرنسا وألمانيا.

وقد شَهِد القرن التاسع عشر، والعشرون إصدار دوائر المعارف الكبرى: تاريخ العقيدة – الحياة الروحية – الليتورجية – قواميس العظات القديمة – العبرانية – الآرامية – اليونانية – اللاتينية – القبطية – السريانية، ثم العربية، بل أكتب في خجل ودهشة؛ لأن أول قاموس ومعجم لكلمات القرآن، صدر في هولندا – جامعة ليدن.

كانت سلسلة شرح أسفار العهد الجديد والتي خصص لها الأب متى المسكين حياته، وشملت معظم الأسفار، هي أول عمل عالمي استند على ما ينشر من دراسات عالمية غير طائفية لأنها:

أولاً: دراسات تاريخية.

ثانياً: تتمسك بإيمان الكنيسة الجامعة قبل الانقسام الذي بدأ في ٤٥١ لكي يسير بعد ذلك في عدة اتجاهات أولاً بين الكنائس البيزنطية وروما، ثم بين روما وحركة الإصلاح، ثم انقسام حركة الإصلاح نفسها. ولكن لدينا ألف سنة من تاريخ الكنيسة كان الإيمان، بل كانت معظم الممارسات شرقاً وغرباً، تكاد تكون واحدة،

وكان الاعتراف بالإيمان حسب قانون إيمان نيقية – القسطنطينية في ٣٢٥-٣٨١ هو اعترافٌ واحد، وحين دخل الاعتراف بانبثاق الروح القدس من الآب والابن، لم تُضَف هذه الزيادة إلا بعد ١٠١٤ وظلت منذ ذلك الحين موضع نقاش.

الفكر الأرثوذكسي العالمي:

ووصف الفكر الأرثوذكسي هنا بـ"العالمي"، يُقصد به ما يعرفه أساتذة اللاهوت الأرثوذكسي في كل العالم، أي ما ليس قاصراً على الروس أو اليونان، بل ما يمتد من الكنائس البيزنطية في آسيا وروسيا واليونان وأوروبا الغربية كلها، ويعبر إلى الولايات المتحدة.

وبالتالي، فإن استخدام بعض الأقباط –الذين لا دراية لهم بهذا الجهد الفكري والدراسي– لفزاعة الفكر الغربي بغرض تفزيع الأقباط من هذا الجهد العالمي، لا غرض له إلا استمرار البقاء في التدني والكسل والإهمال والجهل. يكفي أن تلقي نظرة فاحصة على دائرة المعارف القبطية التي أفنى د. عزيز سوريال عطية حياته من أجل نشرها، لتجد أن غالبية الأبحاث قد نشرها أساتذة من الغرب من كل الطوائف، وجاء الإسهام القبطي فيها محدود لا يقاس بما قدمه غير الأقباط. هذا وضعٌ مخجل، وعندما تطوع الأنبا بيشوي بمحاولة إصدار دائرة معارف قبطية، كان رد الفعل عند الذين تخصصوا في الدراسات القبطية مخجلاً حقاً.

محاكاة القردة والأحزاب السياسية الهابطة:

في كتاب المطالعة الذي كنا نقرأه في الدراسة الابتدائية قرأنا قصةً عن نجار كان لديه قردٌ يحبه ويعيش معه، وكان القرد مغرم بتقليد النجار إلى أن جاء يوم أخذ القرد منشاراً وتسلَّق شجرةً وجلس على فرعها، حاول النجار أن يستعيد منشاره، ولكن بلا جدوى، ولأن القرد يحب المحاكاة والتقليد، وعلى غرار ما يصنع النجار

بقطعة الخشب، بدأ القرد ينشر فرع الشجرة التي يجلس عليه إلى أن سقط على الأرض ومعه المنشار. الذين يشيعون الفزع باسم الغرب ولاهوت الغرب والكفرة من الخلقيدونيين الأرثوذكس، هم من يقطعون الفرع الذي يجلسون عليه، وهو خدمة الكهنوت التي سوف تعاني الرفض، والتي تتعرض لأول مرة لثورة عارمة لا أدري ماذا ستكون نهايتها.

الأحزاب السياسية التي مر التاريخ من أمامها، و لم تدرك معاني ما يحدث وخطورته، هبطت، و لم يعد لها إلا الاسم والماضي المجيد، أما الحاضر، فقد لفظها لأنها فقدت صلتها بالواقع.

أخاف أن ينتشر عداء الإكليروس، ويلوث كل ما هو جميل ومقدس عندنا. فقد بدأت حركة التلوث في ثلاثة اتجاهات:

الأول: نشر كم من الفتاوى خاصة بالسرائر، أصبحت معروفة لكل من يقرأ، وكلها تدور حول طقوس لم تُشرَح بعناية عن الاستعلان الإلهي للثالوث الذي تعبِّر عنه الطقوس.

الثاني: تقديم شرح للعقيدة لا يمس، لا الحياة الأرثوذكسية ولا الحياة الليتورجية، بل ما هو أغرب من هذا، أن يسير هذا الشرح وذلك التفسير في اتجاهٍ مضاد لما يمارَس في الحياة الليتورجية، مثل اعتبار الصليب، بل والمصلوب، ثمناً يقدَّم لله الآب، لا تحريراً للإنسانية؛ ما أدَّى إلى ضياع الصلة بين الصليب والمصلوب، إذ تحول الصليبُ إلى فكرةٍ، لا بذل الشخص، أي يسوع ربنا، وبالتالي يضيع علينا استمرار نهر الغفران في سر الشكر.

الثالث: إشعال حربٍ شعواء على كتابات الآباء التي نُشرت باللغة العربية، مرةً بدعوى خائبة بأن الترجمة ليست صحيحة، وأخرى بأن صحة هذه الكتابات مشكوكٌ فيها، إلى غير ذلك من سخافات لا تستحق الإشارة إليها هنا.

الهجمة الأخيرة:

تبدو الهجمة الأخيرة التي كُرِّست بمؤتمر العقيدة القبطية الأرثوذكسية، هجمةً بريئةً تلعب على وتر الانتماء إلى الكنيسة القبطية أُم الشهداء، والادعاء بأنها تتعرض لفقدان تراثها الروحي واللاهوتي. وإن كنا نلاحظ أن قادة هذا الهجوم قد فقدوا الاتزان، فصاروا بين مريضٍ بالحمى يهذي، أو مترنحٍ نتيجة شرب قدر هائل من الخمور. ويمكننا أن نرى هذا الهذيان أو ذلك الترنح واضحاً في ثلاثة معالم لا يدرك المهاجمون عن أخطارها شيئاً:

١– التقرير بأن ما يُنشر هو ضد إيمان الكنيسة وعقائدها، هكذا دون تحديد ما هو هذا الضد بالنصوص والأدلة.

٢– الخلط بين العقيدة وشرحها، فلم يحاول أحد أن يقول إن الأنبا شنودة الثالث والأب متى المسكين كلاهما يؤمن بالرب والمخلص الذي مات عن الخطاه، وإن كان كلاهما يختلف عن الآخر في شرح أسباب ونتائج هذا الموت، وهكذا تحول الشرح إلى عقائد يروجها دعاةٌ ليس لهم معرفة بالتاريخ، ولا يهدفون من هذا الترويج إلا خلق الانقسام.

٣– انتشار المحاكمات الإعلامية في الفضائيات والمجلات ومواقع التواصل الاجتماعي، بدلاً من أن يكون هناك حوارٌ جاد، أو حتى الرد بدراسات على قدر من الرصانة. بل نجد أن نيافة المطران يكتفي بأن يجمع الكتب ويعرضها على المشاهدين ليصدر عنها حكمٌ عام بأنها ضد تعليم الكنيسة، دون أن يستعرض ما فيها مفنداً ما ادعاه عليها زوراً وبهتاناً، مترفعاً عن أن يردُّ عليها، أو حتى ينشر بحثاً يحفظ له كرامة المدقق والباحث.

ولكن، ليعلم القارئ العزيز إن القيادة بواسطة الإعلام، هي قيادة سياسية الهدف منها تحريك الجماهير، أما الحوار بين المتخصصين، فهو العمل والجهد الذي

قامت به المجامع المسكونية والمكانية لحسم ما يختلف عليه البشر، وهو مـــا لا طاقـــة للمطران عليه، ولذلك يكتفي بالبرامج الحوارية من طرف واحد التي تذيعها القنـــوات القبطية.

تفسير وشرح العقائد ليس عقائد، بل محاولة للفهم:

بالطبع، الشرحُ مطلوبٌ في كل زمان وحسب احتياجات الكنيسة، ولكـــن هناك من الأسباب ما يجعلنا لا نعتقد، بل ونرفض أن يصبح الشرح عقيدة، من تلـــك الأسباب ما يأتي:

١– الشرحُ هو جهد مَن يشرح، فإذا كان موفَّقاً ويسير في ذات طريق الحياة الليتورجية، فهو يعبِّر عن الحقيقة الإيمانية، أما إذا حاد عن هذا الطريق، فإنه يلقي بنـــا إلى غياهب الغموض والضبابية، والأمثلة على ذلك كثيرة، لعل أشهرها هـــو شـــرح الأقنوم على أنه صفة لجوهر الله. هذا الشرح ينقل الأقنـــوم مـــن مجـــال الاســـتعلان الشخصي، أي الأقنومي، إلى مجال غامض غير محدد هو مجال الصفات، لا ســـيما إذا وُصِف الابن بأنه العقل، عندئذٍ يضيع علينا ذلك الارتباط الوثيق الكياني بـــين الابـــن المتجسد، وبين كياننا نحن، وهو ما نلناه بتجسد رب المجد، وهو ما جعل تبني البشـــر علاقة شخصية في الابن مع الآب بالروح القدس.

٢– لأي شرح هدف أو أهداف حددها التسليم الكنسي المودع في الحيـــاة الكنسية الذي تعبِّر عنه الليتورجية، فإذا خاصمت الليتورجية هذا الشرح، عندئذٍ يكون التساؤل عن أهداف هذا الشرح مشروعٌ. ونقدم هنا مثلاً من واقع الهجمة الأخـــيرة، هو ذلك الهراء والهذيان الذي يكتب باسم الخطية الأصلية، في هجومٍ علـــى التـــاريخ الكنسي لمصلحة أشخاص معينين.

فأولاً: القضية ليست قضية غياب مصطلح عُرِفَ أولاً في المصادر اللاتينيـــة، وصار أحد علامات الفكر والشرح الخاص بالقديس أوغسطينوس، بل هـــي قضـــية

إلصاق خطية أو ذنب آدم ببشر لم يخطئوا قبل أن يكون لهم وجود فعلي أو إرادة، في حين أن كل دارسي التاريخ يعرفون أن هذا هو اتجاه مدارس الغنوصية والمانوية التي كان أوغسطينوس من أتباعها في شبابه. والمشكلة تبدون في أننا عندما نجرد إنساناً من إرادته الحرة، وننسب إليه خطية شخص آخر هو آدم، ونعود به إلى تاريخ قديم لم يعِشه، فإننا بذلك نحرمه من الحرية الشخصية، ونلقي به في بئرٍ من غموض لا يعرف له سبباً حقيقياً. في حين أن التعليم الشرقي الدائم الذي لم ينقطع طوال ما يربو على ألفي عالم هو سيادة الموت على الإنسان وعلى فكره وإرادته، وهي السيادة التي جعلت الإنسان يطلب الخلود الذاتي من أعماله وخطاياه، والفرق واضح بين التسليم الكنسي، وما علمت به مدارس الغنوصية والمانوية.

وثانياً: عندما يصبح ما يكتبه البعض وكأنه "تنزيل من التنزيل"، وهو مستوى من الكتابة لا تعرفه المسيحية، ويتشيع لهذه الكتابة بعضُ أشخاصٍ يطالبون بقصاص كل من يختلف معهم، فقد صار كل واحد من هؤلاء بمثابة نبي نزل عليه وحي لا يمكن حتى بحثه، وهنا تنغلق كل أفق الحوار، ويتكرس الاستبداد، وبالتالي تنمحي الشخصية الإنسانية وتنزوي صورة الله في البشر، وهي نتيجة أعتقد أن المهاجمين لم يفطنوا إليها، وأُحسن الظن بهم فأقول ولا كانوا إليها راغبين.

حال الدراسة لدينا

كانت مذكرات اللاهوت المقارن لأستاذنا العظيم د. وهيب عطاالله قد أعطت مساحة كبيرة لشرح رد القديس أغسطينوس على هرطقة بيلاجيوس، وذلك اعتماداً على كتاب أستاذ التاريخ الكنسي بجامعة كمبردج J.F.Bethune – Baker والذي نُشر تباعاً منذ عام ١٩٠٣ بعنوان: An Introduction to the Early History of Christian Doctrine ولم يكن المؤرخ الإنجليزي قد اهتم بتقديم التعليم الشرقي؛ لأن هذا الفصل بالذات لم يكن مطلوباً في قسم التاريخ في جامعة كمبردج، وظل الوضع كذلك حتى شغل الأستاذ G. Lampe مكان الذين سبقوه، وتغيرت المناهج.

والأستاذ G. Lampe هو نفس الأستاذ الذي قدَّم القاموس اليوناني للكلمات اليونانية في كتابات الآباء والذي نشر بعنوان Patristic Lexicon وكنت قد عرضت على هذا الأستاذ ترجمة إنجليزية لنص بردية قبطية من القرن السادس، نشرها W. Crum واضع القاموس القبطي، وتُعرف باسم برديات ستراسبورج ونشر المجلد في عام ١٩١٥ بعنوان: Der Papyrus Codex Sqec VI – VIII der Phillipps Bibliothek in Strassburg p. 20. قال الأستاذ أنها تسير في ذات اتجاه لاهوت الإسكندرية، وأشار إلى مقالة لأستاذ التاريخ Enrhard كانت قد نُشرت في نفس المجلد ص ١٤٨، وهو ذات التعليم الذي نجده في تعليق القديس كيرلس على معجزة عرس قانا الجليل (يو ٢: ٢– ٣ Pusey النص اليوناني مجلد ١: ٢٠ – ٢١). وكان نص البردية هو إجابة القديس كيرلس على سؤال لشخص اسمه أنثيموس Anthemous وكان السؤال هو: هل الأطفال الصغار الذين يموتون قبل أن ينالوا المعمودية، هل سيدخلون الملكوت؟ وجاءت إجابة القديس كيرلس: بكل تأكيد الملكوت هو لهم منذ أن تكوَّنوا في أرحام أمهاتهم، فقد حُسبوا لملكوت السموات. وأيضاً إذا كان الأصل مقدساً، فهكذا الأغصان؛ لأن المقدِّس والذين يتقدسون هم من واحد (عب ٢: ١١).

وقد أشار القديس كيرلس أكثر من مرة إلى تقديس بداية الجنس البشري، ليس فقط في شرح معجزة قانا الجليل الذي ذكر في شرحها أن الرب قد جاء "لكي يجدد الطبيعة الإنسانية ذاتها ويعيدها إلى جمالها الأول وأن يمنح بركةً ليس فقط للكائنين، بل يهيئ نعمةً للذين دُعُوا إلى الوجود بالولادة ... وأن يجعل دخولهم إلى الوجود مقدساً" (شرح يوحنا، المرجع السابق، ص ٢٠١).

ويؤكد القديس كيرلس "أن كل مولود امرأة قد تحرر لأن ميلاد الرب من المرأة؛ لأن ميلاد الرب من امرأة قد حرر الولادة من اللعنة القديمة التي لصقت بالمرأة (تك ٣: ١٦). فقبل تجسد الرب كانت النساء تحبل للموت، وكانت الحياة باباً يؤدي للموت، ولكن عندما تجسد ابن الله رفع اللعنة التي لصقت بالمرأة الأولى" (راجع عظة ٢ على إنجيل لوقا، مجلد ٧٢: ٤٨ – شرح إنجيل متى ٢٨: ٩، مجلد ٧٢: ٤٦٩).

ولكن في الوقت الذي كان أستاذنا العظيم د. وهيب عطاالله – نيافة أنبا غريغوريوس يدرِّس رد القديس أغسطينوس على هرطقة بيلاجيوس ضمن مقرر اللاهوت المقارن، ثمة حدثٍ مازال الشهود عليه أحياء، فقد قدَّم الطالب ماكس ميشيل، بحثاً عن الخطية الأصلية للأستاذ وهيب عطاالله – نيافة الأنبا غريغوريوس، وكان البحث مختلفاً عن العرض الذي قدمه أستاذنا في مذكرات اللاهوت المقارن، وكانت أهم فقرات البحث ما ورد في كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس، وبردية سترسبوج التي أشرت إليها قبلاً، وكنت أنا المسئول عن هذه المعلومات التي جاءت على عكس ما ورد في دراسة البيلاجية؛ لأن تعليم شمال إفريقيا هو ذاته تعليم روما، ولم يكن معروفاً في الإسكندرية إلا عند أوريجينوس وديديموس الضرير، وكلاهما -كما هو ثابت من الدراسات التي نُشِرت- اعتقد بأن السقوط حدث في العالم الروحي السمائي، وأن العقوبة كانت هي نزول الإنسان من العالم العلوي إلى الجسد. هذا التعليم لا يختلف عن تعليم تناسخ الأرواح الشائع في ثقافة ذلك العصر، وهو أحد سمات مدرسة أفلاطون أشهر مدرسة إغريقية في الشرق.

وكان أن رُفِضَ البحث المقدم من الطالب ماكس ميشيل، ورسب الطالب، وشمل القرار كاتب هذه السطور، إذ تغيَّر برنامج الدراسة، وطلب مني الأنبا شنودة تدريس اللغة الإنجليزية، ولكني اعتذرت عن عدم القيام بذلك لأنه ليست لديَّ خبرة بتدريس اللغة الإنجليزية، ومع أن أستاذنا الأنبا غريغوريوس عرض عليَّ أن أقوم بتدريس نصوص الآباء باللغة الإنجليزية، فقد أدركت أنني سوف أواجه ذات المشكلة، خصوصاً وكانت قد ثارت زوابع حول كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس، بعد أن نشرت مقالاً بمجلة مرقس بعنوان: لماذا اعتمد يسوع؟ ذلك لأن المقال جاء على عكس كل ما كان يقال عن معمودية الرب، ولم يكن المقال أكثر من نصوص أثناسيوس وكيرلس. وهنا دبَّ الخلاف بين القطبين: أنبا شنودة وأنبا غريغوريوس، وإذا بالأنبا شنودة يصدر قراراً ليس فقط بعودتي إلى التدريس، بل وتولي وكالة القسم المسائي الجامعي. وكان الوسيط الحقيقي في هذا التغيير هو نيافة الأنبا يؤانس الذي

رُسِمَ أسقفاً على طنطا، ودعاني للتدريس في فرع الإكليريكية في طنطا وكان من أشد أنصار العودة إلى التاريخ ودراسة الوثائق.

الحداثة في كنيسة اليونان الأرثوذكسية:

لا أكتب هذه السطور عرضاً لبحث تاريخي رائع للأستاذ C. Yanaras في كتابه الرائع Orthodoxy and the West والذي نُشر عام ١٩٩٢ ولا عرضاً للبحث الذي سبقه، والذي كتبه الأب Jugie عن الحوار اللاهوتي بين أساتذة اللاهوت في اليونان بعنوان:

Une Nouvelle Dogmatique Trios Theologians Grecs en Presence, 1908.

ولكني أريد أن أشير إلى تجربة الكنيسة اليونانية التي كانت ترزح فيها تحت سطوة اللاهوت المدرسي، والتي أسماها بعض أساتذة اللاهوت هناك "فترة السبي البابلي". فقدت بدأت حركة العودة إلى الآباء بصدام بدأه اللاهوتي C. Androutsos بتصحيح الأخطاء التاريخية عند الأستاذ Trembelas الذي تربَّت أجيالٌ على كتبه، وجاءت حركة الحداثة من مصدرين:

الأول: نشر كتب الآباء كلها.

الثانية: الأبحاث التاريخية واللاهوتية التي رفضت ما نُقِل عن الخلاصة اللاهوتية لتوما الأكويني، في مرحلة ما أسماه جيلٌ من الباحثين بمرحلة "السبي البابلي"، والعودة إلى ما كتبه الآباء مهما كان، وشمل البحث كل ما لدى الأرثوذكسية من تراث، كان آخر ما نُشر هو اللاهوت العقيدي ليوحنا Karmiris.

النهضة الآبائية في كنيسة اليونان:

يضيق المجال هنا عن أن نقدم ما لا يقل عن مئة اسم من أسماء رجالٍ عُـرف عنهم البحث والأمانة، ولكن نكتفي بالإشارة إلى الأستاذ Nellas أو Nisslotis الذي شغل رئيس المعهد المسكوني في جنيف. ولكن جاءت نهضة الكنيسة اليونانية بما قـدِّم من أبحاث ورسائل قُدمت إلى جامعات أثينا وتسالونيكي ونُشر بعضها. وفيما يخـص الهجمة الأخيرة عندنا نشير إلى أن الأب يوحنا Romanides قدَّم بحثاً عـن الخطيـة الجدية عند بولس الرسول[1]. غير أن ما نلفت إليه النظر بشدة، هو أنه عندما يُنشَـر بحثٌ فلا شتائم ولا ميكروفونات ولا مصادرات بل الالتزام بالأمانة المسيحية ونشـر الردود.

وأذكر واقعة كنت أحد شهودها لها دلالتها، تكشف عمـا تنطـوي عليـه النفوس من مشاعر، وعن مدى اهتمامنا بالبحث العلمي والتحديث، كـان السـفير اليوناني قد زار دير الأنبا مقار، وطلب الأب متى المسكين منه تزويد الدير بما صدر من دراسات، لا سيما ما يشمل التاريخ الكنسي والكتاب المقدس والآبـاء، وحـدث أن سُلِّمت الكتب إلى البطريركية في ١٠ صناديق رأيتها بنفسي، ولكنها بـدلاً مـن أن ترسل إلى دير الأنبا مقار نُقلت إلى مقر الأنبا شنودة الثالث، بعد أن قـدمت لائحـة باللغة العربية عن محتويات الكتب عندما كان لا زال بيننا ود.

طبعاً لم تمر حركة الحداثة في كنيسة اليونان دون معاناة، فقد مُنِع Yannaras من التدريس في قسم اللاهوت، ولكن قسم الفلسفة أفسح لـه المجـال، فخرجـت دراسات رائدة في اللاهوت والفلسفة. ولكن ما يجب أن نسجِّله هنا هو أن منعه مـن التدريس لم يشتمل على قرار حرمان؛ لأن الكنيسة اليونانية لا تفرِّط في أبنائها، حـتى الذين اختلفوا مع بعض القيادات من الإكليروس.

---

(١) وهو ما سوف يُنشر قريباً.

هذا عكس ما حدث عندنا، فبعد أن عاد الأستاذ الدكتور وهيب قزمان -مَنَّ الله عليه بالشفاء- من الدراسة في انجلترا، قدَّم بحسن نية نسخةً من أول رسالة دكتوراه عن "النعمة عند القديس أثناسيوس"، غير أن الأنبا شنودة الثالث رفض قبول الهدية، وكانت حجته في ذلك أنه، أي الأنبا شنودة لم يرسله للدراسة! وما ناله الدكتور وهيب، ناله أيضاً د. مجدي وهبه - المتنيح القس صموئيل وهبه الذي مُنع من التدريس لأنه قال في إحدى المحاضرات إن يهوذا اشترك مع باقي التلاميذ في العشاء الرباني[1] وهو عكس ما كان يقول به الأنبا شنودة.

لا أريد أن أفتح كل ملفات الذين يدَّعون أنهم أصحابُ "تنزيل"، وأن مَن ناقش هذا التنزيل أو عارضه، فهو حتماً من الكافرين. ولكني أعود وأطلب من جديد، أن تخصص مجلة الكرازة عدداً سنوياً واحداً لنشر أبحاث الدارسين والرد عليها، علَّنا ننهض من كبوة الاستبداد والتسلط الذي لا طائل منه إلا تخريب العقول، وهدم الإيمان نفسه. والكف عن مطاردة أبناء الكنيسة، حتى وإن كان ما يقولونه محل بحثٍ أو خلاف؛ لأن مطاردة هؤلاء ونشر صورهم الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي، وهو ما حدث مع ١٩ اسم منهم، ليس إلا هجوماً يتمثل هجوم الدواعش، لا هدف له إلا حشد الرعاع ونشر الكراهية للفكر والبحث.

ماذا بعد العودة إلى السرد؟

السرد المجرد هو تأصيلٌ للجهل، وهو أكبر إساءة لدراسة التاريخ القديم؛ لأن غياب الوثائق يعطي من يسرد الجرأة على أن يقدم رؤى شخصية غير تاريخانية، وهو ما نراه في الحرب المعلَنَة على الباحثين، كما نراه أيضاً في تتابع سلسلة من الأخطاء التي صدرت عن المخيلة وحدها. وتجد الدليل على ذلك في قائمة الأخطاء التي نُسِبَت للأب سيرافيم البراموسي، فقائمة الأخطاء هذه وليدة الخيال، وليست إلا ثمرة من

---

(١) ملاحظة: "العشاء الأخير" تعبير غير أرثوذكسي يمس استمرارية عشاء الرب في الكنيسة الجامعة.

ثمرات الجهل بالتاريخ الكنسي. ولذلك تجد هؤلاء السَرَدة ضيوف وحيدون في برامج الحوار في الفضائيات القبطية، ومحاربون أشاوس على صفحات وموقع شبكة المعلومات الدولية، ولكن للأسف تفتقر عباراتهم الرنانة إلى الحد الأدنى من الأمانة التي يُفترض أنها من قوى الشهادة، لذلك تجد أن تصدُّرهم لشاشات الفضائيات يزدحم بالعام من الاتهامات التي يعوزها الدليل، أما أن تجد لهم انتاجاً مكتوباً يُسهم في إذكاء الحوار الجاد، فهيات هيهات؛ فهم لا يبرعون إلا في حشد الجماهير وبث الكراهية والتكفير.

لقد سار مشروع نهضة الأستاذ حبيب جرجس إلى الأمام، وتقدم هذا المشروع بتولي د. وهيب عطاالله التدريس بالإكليريكية. ولكن المسيرة توقفت، بل وهبط مستوى التدريس إلى الحد الذي يرأس فيه قسم اللاهوت في معهد الدراسات القبطية من لم يدرس اللاهوت ولا الكتاب المقدس، بل و لم يلتحق حتى بالإكليريكية، وينضم إليه المسئول عن المركز الثقافي القبطي الذي تنحصر خبرته في الإعلام والكاميرات والميكروفونات، وهي مؤهلهم الوحيد لخوض هذا الحرب.

إن التصدع الحادث عندنا سوف يخلق مع التمزق الداخلي تمرداً وثورةً قد تدمر ما هو عزيز وغال علينا. في النهاية، لا أملك إلا أن أُعيد مرةً أخرى طرح السؤال الذي كان مفتَتَحاً وعنواناً لهذا المقال:

ماذا بعد هذه الحرب المعلَنة على التاريخ والعقيدة،

ولمصلحة من تدور رحى هذه الحرب؟

يتبع

د. جورج حبيب بباوي